اتحاف الأبناء بفوائد من قصص الأنبياء

قصة آدم ﷺ

تأليف
أبي يحيى محمد بن عبده

رقم الايداع	2007 / 7119
الترقيم الدولي	977-6168-33-7

الناشر
دار الصفا و المروة – الاسكندرية

مطبعة العمرانية للاوفست
الجيزة : ٣٧٥٦٢٩٩ ت

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى والصفات العُلى ، خلق فسَوَّى ، وقدَّر فهدى .

مَنَّ على أبينا آدم أبي البشر :

فخلقه بيده الشريفة ـ التي لا تشبه الأيدي ولا تماثلها ـ فأحسن تقويمه ، ونفخ فيه من روحه .

وأمر الملائكة بالسجود له ، وكرَّمه فأحسن تكريمه .

أمرهم بتلقينه تحيته ، وتحية أمته من بعده (السلام عليكم ورحمة الله) ، وعرَّفهم فضله .

وعادى إبليس ولعنه ـ مع كثرة عبادته ـ من أجله .

وسبقت له رحمته غضبه ـ فقد قال لآدم لما عطس ، فحمده: « يرحمك الله يا آدم » ، وجعله أبا البشر ، وخليفته في الأرض يقضي فيها بما أمره ، وعاتب الملائكة بسببه .

وجعله مميزًا للأرواح الخبيثة من الطيبة من ذريته يوم القيامة، إذ أمره ربه أن يخرج بعث النار ، وأسكنه الجنة ، وأباح له الأكل من شجرها إلاَّ شجرة واحدة بلا عمل منه ،

وعلّمه الأسماء كلها .

وتاب عليه من بعد ذنبه وهدى .

فكان أول حامد وأول تائب من البشر ، وأول من تكلم بالعربية - على قولٍ - فهو النبي المصطفى ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ ﴾ [آل عمران : ٣٣] .

والنبي المجتبى ، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢٢] .

أبقاه الله في السماء إذ إلتقى به نبينا رسول البشرية محمد ﷺ ليلة المعراج .

فكان حريٌّ بنا أن نذكر شيئًا من قصته .

آخذين منها الفوائد والعبر ، فبهداه نقتدى ، قال سبحانه عقب قصة بعضهم : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [يوسف: ١١١] .

وقال بعد ذكر عدد من الأنبياء : ﴿ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الانعام: ٨٧] ثم قال : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الانعام: ٩٠] .

فالبقصص نُفكر لنتذكر كما قال تعالى : ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠] ، أذفه من كلام أهل العلم بتصرف .

سائلاً المولى أن ينفعنا وينفع بنا ، إنَّه بكل جميل كفيل ، وهو على كل شيءٍ قدير، وقد تركت أشياء مما تذكر في القصة لا ذكر لها في خبرٍ صحيح عن الله ورسوله ، ولا يترتب عليها فائدة مع اختلاف العلماء حولها .

كالمكان الذي أهبط فيه آدم وحواء .

وتعيين الشجرة التي أكلا منها ، وذكر الحية ، ونحو ذلك، فلو كان فيه فائدة لنا لذكرها الله تعالى ،ولَبَيَّنَهُ لنا نبينا ﷺ ، وأسأل الله أن أكون قد وُفِّقت للصواب ، إنَّه على كل شيءٍ قدير ، والحمد لله أولاً وآخراً .

وصلِّ اللهم وسلم وبارك على محمدٍ ﷺ ، وعلى آله وأصحابه أجمعين .

كتبه

أبو يحيى / محمد بن أحمد بن عبده

بلطيم ـ كفر الشيخ ـ مصر

إخبار الله للملائكة عن خلق آدم ﷺ

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ .. ﴾ الآيات [البقرة : ٣٠: ٣١].

* * *

أمّا سبب تسمية آدم بهذا الاسم

فقد ذكر سعيد بن جبير - رضي الله عنه - :

« أنه سُمِّيَ بهذا الاسم ؛ لأنَّه خلق من أديم الأرض ، وإنَّمَا سُمِّيَ إنسان ؛ لأنَّه نسي » (١).

أمّا عن بدء خلقه ﷺ :

فقد خلقه الله من تراب ثم قال له كن ، فكان .

قال سبحانه : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] ، وقال ﷺ : « **خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجان من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم** » (٢) .

وخلق ﷺ يوم الجمعة بين العصر إلى الليل:

خلقه الله تعالى في أفضل الأيام وخيرها ، وهو يوم الجمعة ، اليوم الذي له مزية على سائر الأيام .

---

(١) أخرجه عنه ابن سعد في « الطبقات الكبرى » (١ / ٢٣) ، وعبد الرزاق في « تفسيره » (٣ / ٢٠) ، وهو مرويٌّ عن ابن عباس في « مستدرك الحاكم » (٢ / ٤١٢).

(٢) صحيح : أخرجه مسلم (٢٩٩٦) .

ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها** » (١) .

وفي حديث أوس بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ : «**إن من أفضل أيامكم يوم الجمعة ، فيه خلق آدم ، وفيه قبض وفيه النفخة ، وفيه الصعقة ، فأكثروا عليّ من الصلاة فيه ، فإن صلاتكم معروضة عليّ** » (٢) .

وفي صحيح مسلم (٢٧٨٩) عن أبي هريرة قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : « **خلق عز وجل التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل** » .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (٨٥٤) .

(٢) صحيح : أخرجه أبو داود (١٠٤٧) ، وابن ماجة (١٠٨٥) ، وابن حبان (٩١٠) ، وغيرهم .

وقد ذكر الله أطوار ذلك التـراب في خلق آدم ﷺ ، فذكر الله طوره الأول ، بقوله : « من تراب » ثم بُلَّ ، فـصار طينًا لازبًا ، ثم خُمِّـر ، فصـار حمـأ مسنونًا ، ثم يبس ، فـصار صلصالاً كالفخار . وهو وجه الجمع بين قوله تعالى : ﴿ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ .

وقوله : ﴿ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴾ [الرحمن : ١٤].

وقوله : ﴿ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٢٦]. أي أسود يابس أملس.

وقوله : ﴿ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ [الصافات : ١١] [1]. أي لزج جيد يلتزق بعضه ببعض .

---

(١) كما أشار الشنقيطي في « دفع الإضطراب عن آي الكتاب » (صـ ١٣١).

آدم ﷺ نبيٌ معلَّم مكلَّم

أخرج ابن حبان [١] بإسنادٍ صحيحٍ عن أبي أمامة أنَّ رجلاً، قال : يا رسول الله ، أنبيٌ كان آدم ؟ ، قال : « **نعم مكلَّم** » قال فكم بينه وبين نوح ؟ ، قال : « **عشرة قرونٍ** » .

وقد علمه شديد القوى الأسماء كلها .

وهو الذي يخرج بعث النار يوم القيامة :

أخرج البخاري [٢] من حديث أبي سعيد الخدري - - عن النبي ﷺ ، قال : « **يقول الله تعالى : يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، والخير في يديك ، فيقول : أخرج بعث النار ؛ قال: وما بعث النار ؟ ، قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين** » [٣].

---

(١) برقم (٦١٩٠) .

(٢) برقم (٣٣٤٨) .

(٣) وتمامه : « . . فعنده يشيب الصغير ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد ، قالوا : يا رسول الله ، وأين ذلك الواحد ؟ قال :أبشروا ، فإن منكم رجلاً ، ومن يأجوج ومأجوج ألف ، ثم قال : والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ربع =

قال الحافظ في « الفتح » :

« وإنَّما خص آدم بذلك لكونه والد الجميع ، ولكونه كان قد عرف أهل السعادة من أهل الشقاوة ، فقد رآه النبي ﷺ ليلة الإسراء ، وعن يمينه أسودة وعن شماله أسودة » [(١)].

قلت « محمد »:

يشير إلى ما أخرجه البخاري ومسلم [(٢)] من حديث أنس ، حديث الإسراء الطويل ، إسراء جبريل بنبينا ﷺ ، وفيه : **«فلما علونا السماء إذا رجل عن يمينه أسودة وعن يساره أسودة ، فإذا نظر قبل يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى، فقال : مرحبًا بالنبي الصالح والإبن الصالح ، قلت : من هذا يا جبريل ، قال : هذا آدم ، وهذه الأسودة عن يمينه ،وعن شماله**

= أهل الجنة ، فكبَّرنا ، فقال : أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة ، فكبَّرنا، فقال : أرجوا أن تكونوا نصف أهل الجنة ، فكبَّرنا فقال : ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود».

(١) الفتح (١١ / ٤٥٧) طـ دار الحديث .

(٢) البخاري (٣٣٤٢) ، ومسلم .

نسم منيه ، فـأهل اليمين منهم أهل الجنـة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ». . الحديث.

وخلق حـواء منه ، كمـا قال تعـالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾ [الأعراف:١٨٩] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ [النساء: ١] .

* * *

كيفية خلق آدم وما دار بينه وبين حواء

أخرج أبو داود (١) بإسنادٍ صحيح عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال : « **إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ؛ فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود ، وبين ذلك والسهل والحزن والخبيث والطيب** » .

وفي كيفية جريان الروح أخبار إسرائيلية الإعراض عنها أولى .

وكان آدم أجوفًا ﷺ فعلم إبليس أنه لا يتمالك .

أخرج مسلم (٢) من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ، قال : « **لمَّا صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء أن يتركه ، فجعل إبليس يُطيف به ، ينظر ما هو ، فلمَّا رآه أجوفًا عرف أنه خلق لا يتمالك** » .

أي : علم أنه لا يملك نفسه عند الغضب، ودفع

(١) في سننه (٤٦٩٣) وغيره .
(٢) برقم (٢٦١١) .

الوساوس، ولا يملك نفسه عند الشهوات ، وعلم إبليس بهذا جعله يوقن أنَّه يمكنه إغواءه ، ولذا أقسم أنه سيغويه .

قال غير واحد من الصحابة [1] : أُخرج إبليس من الجنة وأُسكن آدم الجنة ، فكان يمشي فيها وحشيًا ليس له فيها زوج يسكن إليها ، فنام نومة فاستيقظ ، وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه ، فسألها من أنتِ ؟ قالت : امرأة ، قال : ولماخُلقتِ ؟ قالت : لتسكن إليَّ ، فقالت له الملائكة - ينظرون ما بلغ من علمه - ما اسمها يا آدم ؟ ، قال : حواء ، قالوا : ولم كانت حواء ؟ ، قال ؛ لأنها خلقت من شئ حي .

وفي الصحيحين [2] من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « « استوصوا بالنساء ، فإنَّ المرأة[3] خلقت من ضلع ، وإن أعوج شئ في الضلع أعلاه

(١) الآثار عنهم عند ابن جرير الطبري في « تفسيره » .
(٢) البخاري (٣٣٣١) ، ومسلم (١٤٩٨) .
(٣) ففيه إشارة إلى حواء ، خلقت من ضلع آدم .

، **فإن ذهبت تقيمه كسرته**[1] **وإن تركته لم يزل أعوج ، فاستوصوا بالنساء خيراً »** .

ففي هذا الحديث أن النساء عمومًا يُستمتع بها ، وفيها عوج ، وأنَّه لا يزال فيها ، فإن أرادها الرجل على الاستقامة لم تُسلّم له ، واعلم أنه لم يكمل من النساء إلاَّ القليل ، وهذا باب ينبغي أن يراعى في التعامل مع الزوجة ونحوها من النساء، والموفَّق من وفقه الله .

وقد بسطنا الكلام على نحو هذا في ثنايا كتابنا « تبصير النساء بشريعة رب الأرض والسماء » مبحث النكاح.

* * *

(١) وكسر المرأة طلاقها .

طول آدم ﷺ وصورته

خلق الله آدم على الهيئة التي استمر عليها ، لم يتردد في الأرحام أطوارًا ، فلم يكن كذريته ، نطفة ثم علقة ثم مضغة . . إلخ ، بل خلقه الله رجلاً كاملاً سويًا من أول ما نُفخ فيه الروح .

أخرج البخاري ومسلم [١] من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : **« خلق الله آدم على صورته [٢] وطوله ستون ذراعًا، ثم قال : اذهب فسلِّم على أولئك من الملائكة ، فاستمع ما يحيونك به، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فقال : السلام عليكم ، فقالوا : السلام عليك ورحمة الله ، فزادوه :**

---

(١) البخاري (٣٣٢٦) ، ومسلم (٢٨٤١) ، وليس عند البخاري في هذا الموضع على صورته .

(٢) أي : على صورته التي خلقه الله عليها ، وقد وردت لفظة : « على صورة الرحمن » ولا تثبت ، وقد أنكرها غير واحدٍ من أهل العلم ، راجع أقوالهم في « السلسلة الضعيفة » (١١٧٦) للعلّامة الألباني نور الله قبره ، والحاصل ، أن الله أوجده على الهيئة التي خلقه عليها لم يتنقل في النشأة أحوالاً كما قال الحافظ في « الفتح » (٦ / ٤٤٣) طـ دار الحديث .

ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم ، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن».

وهذا الحديث دليل على أن تحية بني آدم جميعا« السلام عليكم» وأما « صباح الخير » ، وأسعد الله مساءكم ونحو ذلك فهي من اختراعات الجاهلية!!.

وكان أحمر طويل الشعر ﷺ :

وروى ابن أبي حاتم بإسناد حسن [١] عن أُبي بن كعب مرفوعًا : « **إن الله خلق آدم رجلاً طوالاً كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق** » .

---

(١) كذا قال الحافظ في « الفتح » (٦ / ٤٤٤) ، وأخرجه الطبري في «تفسيره» (٨ / ١٤٣) وابن أبي حاتم (١ / ٨٧) (٣٨٨) ، وأحمد في « الزهد » (٤٨) من طريق سعيد عن قتادة عن الحسن عن أُبي بن كعب به ولم يسمع من أُبي .

وقد رواه الحاكم في « المستدرك » (٢ / ٥٤٣) موقوفًا وبواسطة عتي السعدي بين الحسن وأُبيّ ، وصححه الحاكم ، ورواه محمد بن نصر المروزي في « تعظيم قدر الصلاة » (٨٥٢) موقوفًا بغير واسطة بين الحسن وأُبي وفي إسناده ضعف والله أعلم .

مسح ظهر آدم، واستخراج ذريته من ظهره وأخذ العهد عليهم

أخرج الترمذي [(١)] بإسناد صحيح لغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : « لما خلق الله آدم ونفخ فيه الروح عطس ، فقال : الحمد لله ، فحمد الله بإذنه ، فقال له ربه: يرحمك الله يا آدم ، اذهب إلى أولئك الملائكة ـ إلى ملأ منهم جلوس ـ فقل : السلام عليكم ، قالوا : وعليك السلام ورحمة الله ، ثم رجع إلى ربه ، فقال : إن هذه تحيتك ، وتحية بنيك بينهم ، فقال الله له ـ ويداه مقبوضتان ـ : اختر أيهما شئت ، قال : أختر يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، ثم بسطها، فإذا فيها آدم ، وذريته ، فقال : أي رب ما هؤلاء ؟، فقال : هؤلاء ذريتك فإذا كل إنسان مكتوب عُمره بين عينيه ، فإذا فيهم رجلٌ أضوؤهم ـ أو من أضوئهم ـ قال : يارب ، من هذا ؟، قال : هذا ابنك داود قد كتبت له عمر أربعين سنة، قال : يا رب ، زده في عمره ، قال : ذاك الذي كتبت

(١) برقم (٣٣٦٨) ، وله إسناد آخر أخرجه الحاكم (٢ / ٥٨٥ ـ ٥٨٦) .

له(١)، قال : أي رب إني قد جعلت له من عمري ستين سنة ، قال : أنت وذاك ، قال: ثم أسكن الجنة ما شاء الله ، ثم اهبط منها ، فكان آدم يعدّ لنفسه ، قال : فأتاه ملك الموت ، فقال له آدم : قد عجلت، قد كُتبت لي ألف سنة؟، قال : بلى ، ولكنك جعلت لابنك داود ستين سنة ، فجحد فجحدت ذريّته ونسي فنسيت ذريّته»، قال : « وضمن يومئذ أمر الكتاب والشهود» .

وفي رواية (٢):

إن الله خلق آدم من تراب ثم جعله طينًا ، ثم تركه حتى إذا كان حمأ مسنونًا خلقه وصوره ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار . قال : فكان إبليس يمرّ به ، فيقول : لقد خُلقت لأمر عظيم ، ثم نفخ الله فيه من روحه ، فكان أول شئ جرى فيه الروح بصره وخياشيمه ، فعطس فلقاه الله حمد ربه ، فقال الرب : يرحمك ربك ، ثم قال : يا آدم إذهب إلى أولئك

(١) والمعنى والله أعلم كتبت له في الأصل قبل أن أكتب أنك ستزيد له من عمرك .

(٢) أخرجها أبو يعلى(٦٥٤٩) ، ولكن بإسناد فيه ضعف ، وإنّما أردتُ التنبيه عليها .

النفر، فقل لهم وانظر ما يقولون ، ثم ذكره بنحو من ألفاظه .

وأخرج الإمام أحمد [١] بإسناد صحيح لطرقه وشواهده أن عمر رضي الله عنه سئل عن هذه الآية : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢]، فقال عمر : سمعت رسول الله يقول : « إن الله خلق آدم ثم مسح على ظهره ، فاستخرج منه ذريته ، فقال : خلقت هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون»، فقال رجل : يا رسول الله ففيم العمل ، فقال رسول الله ﷺ : «إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ، فيدخله النار ».

وأخرج عبد الله في « زوائد المسند » [٢] بإسناد حسن ،

(١) أخرجه أحمد (١ / ٤٤) والطبري وبعض أصحاب السنن بإسناد منقطع ، ويقويه رواية أحمد (١ / ٢٧) ، وعبد الله ولده في « السنة » (٧٠٦) وله طريق ثالث عند عبد بن حميد (٢٠) ، والترمذي (٣١١١) ، واختلف فيه على الرفع والوقف ، وصوابه الوقف لكن له حكم الرفع .

(٢) « المسند » (٦ / ٤٤١) .

عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ ، قال : « **خلق الله آدم حين خلقه ، فضرب كتفه اليمنى ، فأخرج ذريته بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى ، فأخرج ذريته سوداء كأنهم الحميم ، فقال للذي في يمينه إلى الجنة ، ولا أبالي ، وقال للذي في كتفه اليسرى : إلى النار ولا أبالي** ».

وأخرج ابن حبان [١] وغيره بإسنادٍ جيد من حديث عبد الرحمن بن قتادة السلمي ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « **خلق الله آدم ثم أخذ الخلق من ظهره فقال : هؤلاء في الجنة ، ولا أبالي ، وهؤلاء في النار ولا أبالي** » قال قائل : يا رسول الله فعلى ماذا نعمل ؟ ، قال : « **على مواقع القدر** » .

وأخرج البخاري ومسلم [٢] من حديث أنس يرفعه : « **إنَّ الله يقول لأهون أهل النار عذابًا : لو أن لك ما في الأرض من**

(١) أخرجه أحمد (٤ / ١٨٦) ، وابن حبان (٣٣٨) .
(٢) البخاري (٣٣٣٤) ومسلم .

شئ كنت تفتـدي به ؟ ، قال : نعم ، قـال : فقد سـألتك ما هو أهون من هذا وأنت في صلب آدم ، أن لا تـشرك بي ، فـأبيت إلا الشرك ».

ويؤخذ من أحاديث الباب :

أن لا يتكل الإنسان علـى القدر المكتوب ، ويحـتج بالقدر الذي قُدِّر ؛ لأنه لا يعلم ما الذي كتب .

فهلاً عمل بالطاعة واحتج بالقدر ؟!!

لكنه اتبع هواه . . . فكان اختياره هو الذي قُدِّر عليه ، وهو أليق به ولا يظلم ربك أحـداً فلله الحـمد والمـنة على شرعـه وعدله .

أول كلام آدم حمده لربه

أخرج ابن حبان [١] بإسناد جيد عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : « لما نُفِخ في آدم ، فبلغ الروح رأسه عطس ، فقال : الحمد لله رب العالمين ، فقال له تبارك وتعالى : يرحمك الله » .

* * *

(١) برقم (٦١٦٥) وأخرجه الحاكم (٤/ ٢٦٣) وروى موقوفا وهو يُصحح فيه الوجهين، ويشهد له حديث أبي هريرة مرفوعًا عند الحاكم والله أعلم .

إخبار الله الملائكة بخلق آدم ﷺ

يخبر الله تعالي الملائكة قائلاً لهم : ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾ . [البقرة]

إني خالق آدم ﷺ خليفة في إمضاء أحكام الله وأوامره حيث إنَّه رسول إلى الأرض .

ثم بعده قوم يخلف بعضهم بعضًا ، وليس المعنى أنه خليفة لله سبحانه يخلفه في ملكه، فإنَّه الملك في الأرض، والملكُ له ثابت بقوله تعالى : ﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ [البقرة :١٠٧].

وثابت بقوله ﷺ : « لك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن » (١) .

وقوله : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن . . .﴾ .

فسأل الملائكة ربهم سؤال استكشاف واستعلام عن الحكمة في ذلك .

فالمعنى : يا ربنا ستجعل فيهم من يفسد في الأرض

---

(١) ضمن حديث أخرجه البخاري (١١٢٠) .

ويسفك الدماء ؟ (١).

فيؤخذ من الآية وجوب نصب خليفة للناس مع مراعاة شروطه (٢) ، وهو إجماع من الصحابة فمن بعدهم .

---

(١) وقد يكونوا علموا ذلك بما فهموا من كونه خليفة سيقضي بين الناس في خصومات .

أو بعد علمهم بعد ما رأوه أنه أجوف لا يتمالك كما علم إبليس ذلك حينما رآه قبل جريان الروح فيه .

ومحتمل أن يكون الله أعلمهم بذلك ، أو نحو ذلك .

والأولى لدينا ما سقناه عاليًا من أن سؤالهم لربهم كان سؤال استكشاف واستعلام، حيث أن ثَمَّ أخبار إسرائيلية مفادها أن الجن كانوا قد سكنوا الأرض وأفسدوا فيها فهُيئ للملائكة أن من يسكن الأرض سيفعل هذا ، والله أعلم .

(٢) وقد ذكر هذه الشروط القرطبي ، وهي ما حاصلها:

* أن يكون من صميم قريش لقوله ﷺ : « الأئمة من قريش » - على قول - اللهم إلا إذا لم يوجد في قريش من لا يقيم الدين وطاعة الله ورسوله في الناس فغيرهم حينئذ أولى والله أعلم.
* أن يكون ممن يصلح أن يكون قاضيًا من قضاة المسلمين مجتهدًا إجمالاً
* وأن يكون ذا خبرة ورأي حصيف ، بأمر الحرب وتدبير الجيوش ، وسد الثغور ، ونحو ذلك .
* وأن يكون ذكرًا لقوله ﷺ : « ما أفلح الله قومًا ولو أمرهم امرأة » .
* وأن يكون هذا الخليفة سليم الحواس التي يُحتاج إليها في القيادة . =

ويؤيده قولـه تعالى : ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦].

والحاجة إلى ذلك .كائنة في كل عصر.

﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ .

فالملائكة عبادٌ مكرمون لا يسبقون ربهم بالقول ، وهم بأمره يعملون ، وكأنهم يقولون :

= * وأن يكون بالغًا عاقلاً عدلاً غير ظالم ، فلا يجوز عقد الإمامة لفاسق اهـ بتصرف.

وهذا الإمام أذا طرأ عليه فسق لا يُخرج عليه إلا أن يُرى عليه كفراً مباحًا عند الناس عليه من الله برهان ، وقد تراكمت الأدلة على ذلك ، فهي كثيرة محشورة في غير هذا الموضع لحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: « بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ولا ننازع الأمر أهله» . قال : « إلا أن تروا كفراً بواحًا عندكم فيه من الله برهان » أخرجه البخاري (٧٠٥٦) وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ : « من رأى من أميره شيئًا فكرهه فليصبر ، فإنه ليس يخرج من السلطان شبراً فمات عليه إلا مات ميتة جاهلية» أخرجه البخاري (٧٠٥٣) ومسلم (١٨٤٩) ، وفي صحيح مسلم (١٨٥١) قوله ﷺ : « من خلع يداً من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»، والله أعلم .

إن كـان المراد عبـادتك ،فنحن نسبح بحـمدك ، ونقـدس لك، أي: نصلي لك، فالملائكة: يسبحون ربهم بالليل والنهار لا يفترون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

فأجابهم الله تعالى بقوله :﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾.

فـالله يعلم المصلحة الراجـحـة في خلق هذا الصنف على المفاسد التي ذكرتموها مالا تعلمون أنتم ، فالله يعلم المفسد من المصلح ومقدار الفساد والصلاح .

وحقًا !!!

فإن في خلق آدم وذريتـه مصلحة، بل مصـالح ، حيث أن فيهم الأنبياء والرسل ، وفيهم الصديقون والشهداء والصالحون، والعُـبَّـاد ، والزهَّاد ، والأولـيـاء ، والأبرار ، والمـقـربون ، والعلماء العاملـون ، والخاشعون ، والمحبـون له تبارك وتعالى المتبـعون لرسله صـلوات الله عليهم ، والذاكـرين الله كثـيرًا، والذاكرات، ونحوهم ، وقد علمت الملائكة ذلك فيما بعد.

فـمن هؤلاء الملائكة من قـالوا فـيـمـا بعـد عن بني آدم: تركناهم وهم يصلون وأتـيناهم وهم يصلون [1] حـينما كـانوا

(١) وذلك حين سألهم الله، وهو أعلم بعباده قائلاً لهم: كيف تركتم عبادي: قالوا: تركناهم وهم يصلون ،والحديث أخرجه البخاري (٥٥٥) ومسلم وغيرهما .

يتعاقبون فيهم بالليل والنهار .

إذًا فالله تعالى يعلم المصلحة الراجحة ، ويعلم تفصيل الأمور التى ستكون ، والأمور التي لم تكن لو كانت كذا كيف تكون. فلكم ظهرت من حِكم في خلق آدم ﷺ لم تكن تعلَّمتها الملائكة .

فقد ظهر كبر إبليس عليه لعنة الله ، وعناده للذي خلقه .

ولكَم من حكم وأسرار غابت عن الملائكة حدثت من خلق آدم ﷺ وذريته. فإذا كان ذلك كذلك :

عُلم ما في قوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ من الأسرار البديعة التي من وقف عليها أوجب له ذلك أمورًا: ذكرها ابن القيم في « الفوائد » (ص ١٦٣) .

وقد جاء على غرارها غيرما آية في كتاب الله.

قال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

فلكم جاء من الخير بلايا ، وكم جاءت المنح من المحن . .

أفضلية آدم ﷺ على الملائكة

إنَّ آدم ﷺ فُضِّلَ على الملائكة بالعلم الذي علمه الله إياه ؛ إذ علمه الله أسماء كل شئ .

قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣١]، فالفضل إذًا على آدم أولاً وآخرًا من الله .

وعلى ذلك .

فالمعلِّم من علمه الله :

قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣].

وقال لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٨٦].

وقال عن داود عليه السلام : ﴿ وعلمناه صنعة لبوس لكم﴾ [الانبياء :].

وقال لعموم الناس : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ [النحل : ٧٨].

وقال كذلك : ﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلا آبَاؤُكُمْ ﴾ [الانعام:

٩١].

وقال : ﴿ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق : ٤ ، ٥].

وقال : ﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ القُرْآنَ ﴾ [الرحمن : ١ ، ٢].

وقال عن الخضر : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴾ [الكهف : ٦٥].

ولما رَجى النبي ﷺ العلم لابن عباس ، قال : « **اللهم فقه في الدين ، وعلمه التأويل** »[1] « **اللهم علمه الكتاب** » .

فالفضل إذًا أولاً وآخرًا على آدم من الله ، فهو الذي علمه ثم فضّله على الملائكة بهذا العلم .

وهذا يدلك - أيها القارئ الكريم - على فضيلة العلم .

وبعد ذلك عرَض على الملائكة هذه الأشياء التي علمها لآدم، وسألهم .

قال تعالى : ﴿ ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة : ٣١] .

وانظر إلى جواب أهل الإيمان ،وتواضعهم وأدبهم ، ﴿قَالُوا

---

(١) أخرجه أحمد (١ / ٣٢٨) بإسناد حسن .

سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٢]، إذ يعلمون أن الخلق : ﴿ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥].

هكذا يفعل العالم المتواضع إذا سُئِلَ عن علمٍ لا يعلمه أن يكِلِ العلم إلى الله .

أدب حسن قويم للعالم ولطالب العلم مأخوذٌ من قول الملائكة السابق .

حبذا يتعلم هذا المدرس والقارئ والمهندس والطبيب وغيرهم فمع الصنعة التي يتعلمها التواضع وعدم الكلام فيما لا يعلم .

فالطبيب يعمل التجارب على المريض ويكلّفه عناء.. ولا يقول له: « لا أعلم »! ولا حول ولا قوة إلا بالله .. وأمثاله كثير.

وقد قال الله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ [الإسراء : ٣٦].

وقد قال لمحمد ﷺ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ

ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ [الإسراء : ٨٥].

وهو ﷺ يقول لجبريل عن وقت القيامة : « ما المسؤل عنها بأعلم من السائل» .

وقال تعالى لنوح ﷺ حينما خاطب ربه في ولده الظالم الكافر : ﴿قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [هود:٤٦].

وقوله ﷺ إذا سُئِلَ عن أي البقاع خير : « لا أدري حتى أسأل أن سأل جبريل فقال عن خير البقاع وعن شرها فقال لا أدري حتى سأل الله تعالى فقال له خير البقاع المساجد ، وشرع البقاع الأسواق » [١] .

وقد عاتب الله تعالى موسى ﷺ لما سُئِلَ أي الناس أعلم ؟ قال : أنا ، ولم يكل العلم إلى الله [٢].

هؤلاء أصحاب النبي ﷺ قد كانوا يسألون عن المسألة

(١) وهو خبرٌ قوي لطرقه عند أحمد (٤ / ٨١) وشاهده عند الحاكم (٢ / ٧) عن ابن عمر .

(٢) وهذا في صحيح البخاري (٣٤٠١) ، ومسلم (٢٣٨٠) .

بحضـرة النبي ﷺ ، وإن كان معلومًـا لديهم لا يتكلمون إذا ظنوا أن النبي ﷺ سـيغـير اسـم ما سُئِلُوا عنه ، وهذا باب واسع ، وأدلته متوافرة.

نعود إلى القصة:

فلمَّا قـالت الملائكة ما قالت أعلمهم الذي يعلـم السر وما هو أخـفى من السر وجـهًا من وجـوه تفـضيل آدم عليـهم ، فقال: ﴿ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّـمَـوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَـا تُبْـدُونَ وَمَـا كُنتُمْ تَكْتُـمُـونَ ﴾ [البقرة: ٣٣] .

فالعلم الظاهر والخفي في علم الله سواء ، كما قال تعالى: ﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ [الرعد : ٩].

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾ [النحل : ١٩].

وقال : ﴿ والله بكل شئ عليم ﴾ .

ومن هنا يعلم شرف العلم :

فأظهـر الله تعالى للملائـكة شرف آدم عليهم واسـتحقـاقه لسجودهم له من أجل العلم الذي علمه الله إيَّاه .

* وقد ورد في فضل العلم أدلة كثيرة متوافرة في كتاب الله وفي سنة رسوله فمن ذلك اقتران شهادة الله ثم الملائكة بشهادة أولي العلم في قوله تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] .

* ولم يأمر الله نبيَّه محمداً ﷺ بالإستذادة إلا منه، فقال : ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] .

* والتعويل على إيمان أهله إن لم يؤمن غيرهم ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ [الإسراء: ١٠٧] .

* والعلم طريق يوصل إلى الجنة ، قال ﷺ :« من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله به طريقًا إلى الجنة » (١) .

* وقُدِّم العلم على الشهادتين والعمل ، قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [محمد: ١٩] .

* فالعلم كمثل الغيث الذي أصاب أرضًا ومعادن الناس

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم .

هي الأرض ، فمنها نقية تنبت الـكلأ والعشب الكثير ، ومنها القيـعان التي لا تمسك مـاءًا ولا تنبت كلئًا ، وقـد أشار النبي ﷺ إلى غير ذلك ضمن فضائل العلم التي لا تحصى [١].

وأهل العلم هم القائلون في أرض المحشر يوم القيامة ﴿ إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين ﴾ .

كما أنه يـنبغي أن يكون القول قولهم في الدنيـا ويُتبع على هذا.

قال إبراهيم ﷺ : ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم:٤٣].

وما هذه الأسماء التي علَّمَهَا الله لنبيه آدم عليه السلام ؟

فالجواب ،

هي أسماء كل شئ ،لما في صـحيح البخاري [٢] أن النبي

(١) وقد عقد الإمام ابن القيم فصولاً وأبوابًـا في كتابه « مفتاح دار السعادة » في فضل العلم ، وألَّف ابن عبـد البر كتابًا حافلاً في ذلك سـماه « جامع بيان العلم وفضله » وكثـرت المؤلفات في هذا الباب لعظم أهميتـه ، وما يترتب عليه ، وخطورة انتشار الجهل ، وما يترتب عليه ، والله المستعان .

(٢) البخاري (٤٤٧٦) ، وهو حـديث الشفاعة الطويل ، ويسـتدل لذلك أيضًا بقصة احتجـاج آدم وموسى أن موسى ﷺ قال لأبينا آدم ﷺ :« وعلمك =

ﷺ قال : « إن الناس يقولون في أرض المحشر لآدم: أنت أبو الناس ، خلقك الله بيده ، وأسجد لك ملائكته، وعلمك أسماء كل شيءٍ فاشفع لنا عند ربك » . . الحديث .

فالله علَّم آدم الأسماء التي يتعارف بها الناس: إنسان ، ودابة ، وأرض ، وسهل ، وبحر ، وجبل ، وجمل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم . . وغير ذلك [٢].

فلما خص الله تعالى به أبا البشر آدم ﷺ من العلم ، ثم إنَّه سبحانَه خلقه بيده الكريمة ـ التي لا تشبه الأيدي ولا تماثلها ـ ونفخ فيه من روحه وكان من شأنه ﷺ كذلك أمر الملائكة بالسجود لآدم له ليظهر كبر إبليس الذي كان رئيسًا للملائكة في السماء الدنيا كما قال غير واحد من الصحابة ، وتظهر مخالفته لأمر الله ومعاندته إياه واعتِّراضه على أمره وكبره، وسوء أدبه مع ربه الذي خلقه من العدم ، وازدرائه لآدم ﷺ.

= أسماء كل شيءٍ » وسيأتي.

(١) وقد ثبت ذلك عن ابن عباس عند الطبري في « تفسيره » وغيره .

أمره سبحانه بالسجود لآدم:

فقال سبحانه: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٢٩].

وقال في الآية الأخرى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الأعراف : ١١ : ١٢].

وفي الآية الأخرى : ﴿ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٣١] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف : ٥٠].

هكذا سجد جميع الملائكة ، ملائكة الأرض وملائكة السماء[1] .

---

(١) وهو قول جمهور المفسرين ، ويؤيده عموم قول المؤمنين لأبينا آدم في حديث الشفاعة : « وأسجد لك ملائكته » ، وهو في الصحيحين وغيرهما ، وكذلك قول موسى عليهما السلام في المناظرة المشهورة : « وأسجد لك ملائكته » فهذا عموم يؤيد أن جميع الملائكة سجدوا.

وهذا سجود تشريف وتكريم لآدم .

وعبادة لله ؛ لأنَّه امتثال لأمره سبحانه وليس سجود عبادة لآدم ﷺ.

فأحيانًا يكون السجود تحية وتشريف كما كان في بعض الشرائع فقد قال تعالى عن يعقوب وأبناءه وسجودهم ليوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠].

والله أعلم بكيفية هذا السجود .

هل كان انحناءً أم غير ذلك ؟ .

وظهر بهذا الأمر عناد إبليس ، وكفره ، وتمرُّده على أمر ربه سبحانه .

ويا هل ترى ما حجة إبليس ـ لعنه الله ـ في عدم السجود لآدم ﷺ ؟!

ما الذي أحوجه واضطره وألزمه أن لا يسجد مع وجوب السجود عليه ؟!!!

قال تعالى له : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] .

وفي الآية الأخرى : ﴿ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلاَّ تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢) قَالَ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾ [الحجر : ٣٢ ، ٣٣] .

وفي الأخرى ، قال إبليس: ﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ [الإسراء: ٦١] .

هكذا ، نظر لنفسه بطريق المقايسة بينه وبين آدم ﷺ ، فرأى - بنظريته الفاسدة التي هي أقرب إلى الجهل منها إلى العلم - بل هي أم الجهل الذي أردى صاحبه في المهالك أن نفسه أشرف من نفس آدم ﷺ ، فامتنع من السجود له مع وجود الأمر الإلهي له ، ولسائر الملائكة بالسجود .

والقياس هنا في مقابلة نص ! .

في مقابلة الأمر الشرعي ! .

ألا فكل من أدخل رأيه واجتهاده بعد مع علم نص الشرع سلفه في ذلك إبليس عليه لعنة الله، هو معلّم ذلك للناس.

أما أهل الإيمان والتواضع : فإنَّهم يطيعون الله سواء علموا الحكمة من الأمر أم لم يعلموا ، قال تعالى عنهم : ﴿ إِنَّمَا كَانَ

قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٥١].

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

هكذا امتنع إبليس عليه لعنة الله من السجود بسبب قياسه الذي كان في مقابلة الشرع، فظن أن معدن النار أفضل من معدن الطين ، ولذا قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾.

فقياسه فاسد من وجوه :

الأول : أنه يقتضي اعتراض على الأوامر الشرعية الإلهية.

والصواب : أن لا يقدم اعتراض على الأوامر الشرعية الإلهية.

ثم إن العقل إذا عارض الشرع فالعقل فاسد أصلاً.

الثاني : أنه في نفسه ، قياس فاسد .

فإن الطين أنفع وخير من النار ؛ لأنَّ الطين فيه الرزانة ، والحلم ، والأناة ، والنمو .

والنار فيها الطيش ، والخفة ، والسرعة ،والإحراق ، والدمار.

ثم ضع في الطين حبة تنتج لك شجرة يُنتفع بها ، لكن النار إذا اشتعلت التهمت الأخضر واليابس .

وجه آخر : أننا لو سلمنا جدلاً أن معدن النار أفضل من معدن الطين ، فإن هذا لا يستلزم أن يكون الفرع كالأصل ، فكم ممن خالف أصله ، وكان الأصل رفيعًا ، والفرع وضيعًا، ثم إن آدم ﷺ شرَّفه الله بخلقه له بيده ، ونفخه فيه من روحه، فأنَّى لإبليس ذلك ؟! .

لكن خانته مادته الخبيثة أحوج ما كان إلى الخير والفهم الحسن ، فاعتذر اعتذاراً بما لا يجدي عنه شيئًا ، وكان اعتذاره أشد من ذنبه ، فقال: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

عاند ربه جرءة وكفراً ، وإصراراً على ذلك .

فقال: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

لأحتنكنَّ ذريته إلا قليلاً﴾ [الإسراء: ٦٢].

أي : لأستولين على ذريته ، ولأضلنهم إلاَّ قليلاً .

وفي الآية الأخرى تَوَعّد للذرية مع سوء الأدب مع الله حيث قال: ﴿فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم (١٦) ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن ...﴾ [الأعراف: ١٦] وفي الآية الأخرى: ﴿قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾ فاتهم ربه بأنه هو الذي أغواه [١].

وقال مجدًا مجتهدًا في كل طريق ليل ونهار بمحاولة إضلال بني الإنسان معاديًا له بغباوة منه لأن الله فضّله عليه فسبحان الله!!.

ففي الحديث[٢] قوله ﷺ : « إنَّ الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال :تسلم ، وتذر دينك

(١) ولبعض فرق القدرية نصيب من دعوى أن الله هو الذي أغواهم ، فهم في هذا خلف لإبليس ، وعلى طريقتهم من يحتجون بعدم هداية الله لهم ويسوِّغون لأنفسهم فعل المعاصي ، فيقول جاهلهم لم يُرد الله أن يهديني ، لو شاء الله أن أقلع عن المعصية لأقلعت .

(٢) الذي أخرجه النسائي (٣١٣٤) وغيره بإسنادٍ جيد .

ودين أبيك ، وآباء أبيك [1] ثم قعد له بطريق الهجرة ، فقال : تهاجر، وتدع أرضك [2] وسماءك ، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول ، ثم قعد له بطريق الجهاد ، فقال : تجاهد فهو جهد النفس ، والمال ، فتقاتل فتنكح المرأة ، ويُقسم المال» . . الحديث .

فالشيطان الرجيم قاعدٌ لك يا ابن آدم بكل مرصد .

إنَّك إن علمت أن ثَمَّ رجل ترصَّد لك مع خبرته بالترصد، لكان الأحرى بك أن تستعد له أيما استعداد .

فكيف إذا كان إبليس الذي اكتسب خبرة في إضلال العباد منذ أهبط أبينا آدم من الجنة إلى الآن ، لاسيما ، وقد أقسم على ذلك بعزَّة الله ، فقال : ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين﴾ لاسيما وقد سمح ربه له بذلك، فقال له : **﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا﴾** [الإسراء: ٦٤].

---

(١) فيا دعاة القومية إمامكم إبليس .

(٢) ويا دعاة الوطنية إمامكم الشيطان الرجيم .

فلما حدث من إبليس ما حدث ، كان لابد من العقوبة التي تناسبه - جريًا مع ما تقتضيه الحكمة الإلهية - فقد أسقطه الله من مكانته ، فطردَه من رحمته ، وجعله عبرة لكل من عاند ربه ، وتمرّد على أوامره باجتهاده وأقيسته ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ [الحجر: ٣٥] ، وفي الآية الأخرى : ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

وهل هذه العقوبة خاصة بإبليس ؟

فالجواب لا .

فما هذه العقوبة من الظالمين ببعيد .

فما هي من أتباع إبليس ببعيد .

فما هي من الذين يغيرون خلق الله ، ويبدلون شريعته ، ويحكمون بغير حكمه ، أو يعترضون على أوامره بأمزجة وأهواء . . . ببعيد .

قال تعالى له : ﴿ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٣].

وفي الآية الأخرى : ﴿ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ .

... هكذا تصنع المعاصي بأهلها

فبعد أن كان إبليس في السماء ، أمره الله بالهبوط منها ، والخروج من المنزلة والمكانة التي قد نالها بعبادته ، وتشبُّهه بالملائكة في الطاعة والعبادة ، ثم سُلب كل ذلك منه بكبره وحسده ، ومخالفته لربه ، فأُهبط إلى الأرض مذمومًا مُبعدًا مقصيًا حقيرًا ذليلاً مهانًا ، يُلعن في كل مكان ، وفي كل حين ، بل صار كثرة الأجر لمن أكثر من لعنه .

حقًا !!!

المعاصي سبب لزوال النعم وحلول النقم ، كما أن الطاعة سببًا لجلب النعم ، ودفع النقم .

قال سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة : ٦٥] .

وقال سبحانه : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا

عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٦٠ ، ١٦١].

وقال : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ [المائدة : ٦٥].

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٦٦].

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الاعراف : ٦٦].

وقال : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ [النحل : ١١٢ : ١١٣].

وقال : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [الاعراف : ١٦٥، ١٦٦].

وقـال تعـالى : ﴿ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٦ ، ٧٧].

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال سبحانه عن قوم سبأ : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٦، ١٧].

وقال جل وعلا : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا . فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا . أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الطلاق: ٨: ١٠].

وما المستفاد من أمر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم وامتناع إبليس ؟

فالجواب [١] :

(١) مستفاد بعضها من تفسير سورة البقرة لشيخنا .

إستفدنا عقوبة الكبر الذي هو بطر الحق ، والإستعلاء على أمر الله عـز وجل ، وأنه قد أودى بإبليس إلى الكـفر والطرد من رحمة الله تعالى ،فـالمتكبِّر يحشر يوم القيامـة كأمثال الذر يطئه الناس بقدمه من هوانه على الله تعالى يغشاه الذل من كل مكان ويساق إلى سجن يسـمى « بولس » تعلوه نار الأنيار ، ويسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال (١) .

وعمـومًا ، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فكما أن التواضع يدخل الجنة (٢) ، فالكبر يدخل صاحبه النار .

فلا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر كما قال

---

(١) وقد ثبت الخبر بذلك كما ذكرته في كتابي « أعمال تدخل صاحبها النار».

(٢) فـقـد قـال ﷺ : « من مـات وهو بريء من ثلاث دخـل الجنة : الكبـر ، والغلول ، والدين » ، ،وهو ثابت صحـيح كما ذكرته في كتـابي « أعمال تدخل صاحبها الجنة » .

وأهل الجنة ثلاث « ضعيف متضعف » أي : من شدة تواضعه .

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] .

ﷺ ، فالكبـر يتسبب في الطبع على القلب ، قـال تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ .

ما الذي خسف بقارون وبداره الأرض ،وما كان له من فئة ينصرونه وما كان من المنتصرين ؟! .

إنّه الكبر الذي جعله يقول عن المال الذي استخلفه الله عليه ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٨].

وهل أحرق الله جنة صاحب سـورة الكهف إلاَّ لكبره الذي ظهر في قوله لصاحبه :

﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف : ٣٤] ، تكبـرًا بعشيرته قال تعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾ [الكهف : ٤٢ ، ٤٣].

وهل أهلك الله فرعون وأخذه الله نكال الآخرة والأولى إلاَّ لكبره وبطره على الحق الذي جاء به موسى ﷺ ، حيث جعله يقول : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤] ، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] حيث جعله ينادي فيمن استخفهم فأطاعوه متبجحًا مغترًا بملكه : ﴿ يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون، أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين﴾ .

فسل الدنيا كلها ، من الذي أجرى الماء من فوقه ، وانتقم منه، وجعله سلفًا ومثلاً للآخرين جزاءً وفاقًا على تمرده وعتوه ، وكفره ، وعناده على أوامر الله.

وسل قوم عاد عن سبب هلاكهم بالريح الشديدة القوية، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم ، وكانت باردة شديدة البرد جدًا .

قال تعالى : ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

فأدت إلى ماذا ؟

قال تعالى : ﴿ فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴾ [الحاقة: ٧] .

جعلت الريح تضرب بأحدهم الأرض ، فيخر ميتًا على أم رأسه ، فينشدخ رأسه ، وتبقى جثته هامدة كأنها قائمة النخل إذا خرت بلا أغصان . . ! .

وسل قوم صالح ، مـاذا كان جزاء عقرهم الناقـة وعتوهم عن أمـر ربهم ، وقولهم لأهل الإيمان مـا قصـه الله علينا من خبرهم : ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٧٦-٧٨].

جاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم ،

فـفـاضت الأرواح ، وزهقت النفـوس في ساعـة واحـدة ، فأصبحوا صـرعى لا أرواح فيهم ، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير ولا ذكر ولا أنثى ، كما قال علماء التفسير .

ولذلك أوصى الأنبياء كنوح [١] وغيره من الأنبـياء أقوامهم بالبعد عن الكبر واستعاذ الأنبياء منه .

وكان النبي ﷺ يستـعيذ بالله من الكبر ، فعن ابن مـسعود أن النبي ﷺ كان يتعـوذ من الشيطان من همزة ونفثـه ونفخه في الصلوات [٢].

والهمز : الجنون ، والنفث :الشعر ، والنفخ : الكبر .

ولا أخطر على المتكبر من أنه يُصرَف عن فهم الحجج وفهم الأدلة الدالة على عظمته سبحـانه وعظمة شريعته وأحكامه ، قال تعـالى : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]؛ لأنّه مبغوض لا يحبه الله .

(١) كما في وصية نوح ﷺ لابنه ، وقد ذكرتها في كتابي « فقه الوصية » .
(٢) وهو حسن لغيره ، كما ذكرته في كتابي « تيسير دراسة الفقه » للمبتدئين .

قـال تعـالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ [النساء: ٣٦].

وقال : ﴿ إنه لا يحب المستكبرين ﴾.

ألا ، فليعلـم كل متكبر أن مـبدأ هذا الداء هو الإعـجاب بالنفس ورؤية الإنسـان الكمال والخيـرية لنفسه على غـيره ، فليحـذر الكبير والصغيـر داء الإعجاب بالنفس ، فـإنه مبدأ هذا الداء العضـال ، وما الكبـر إلا ثمرة من ثمـرات العجب عيـاذاً بالله من هذا وذاك ، فمن العُـجب ينشأ تزكـية النفس الذي ينشأ منه داء الكبر نعوذُ بالله منه .

ولذلك جاء النهي عن كل ما يؤدي إلى هذا الداء من مدح الإنسان لنفسه ، أو مدح غيره له ـ إن لم يكن له لحاجة ـ .

قال تعـالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٤٩﴾ انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ... ﴾ [النساء: ٤٩].

وقال عليه الـصلاة والسلام : « احثـوا في وجوه المدَّاحين

التراب » (١) .

وفي صحيح مسلم قول المقداد بن الأسود : « أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب » (٢) .

وقال ﷺ لمن قال : إن مدحي زين ، وذمي شين : «ذاك الله» (٣) .

وقال عليه الصلاة والسلام لمن مدح رجلاً: « قطعت عنق صاحبك » (٤) .

ومما يستفاد أيضًا من أمر الله للملائكة بالسجود وامتناع إبليس :

أن القلوب والبواطن يعلمها الله عز وجل ، فنحن وإن حكمنا على الناس بظاهر ما بدا منهم ـ وهذا هو المشروع لنا ـ لكن قد يكون هناك وراء هذا الظاهر أمور أخرى تخالفه، فهذا إبليس كان ظاهره الصلاح، وأنَّه في عداد الملائكة، لكن

(١) أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمر مرفوعًا بإسناد حسن .
(٢) صحيح : أخرجه مسلم (٣٠٠٢) .
(٣) أخرجه مسلم (٣٠٠٢) .
(٤) صحيح : أخرجه مسلم (٣٠٠٠) من حديث أبي بكرة ـ ﷺ ـ .

لمَّا أُمر بالسجود ظهرت حقيقته، وما انطوى عليه من داء عضال.

ومن الفوائد أيضًا :

فضل امتثال أمر الله عز وجل ، والتواضع له ، والإنقياد لأمره ، والتسليم له ، فلما أطاعت الملائكة أمر ربها ، وسجدت رفع الله قدرهم ، وأعلى الله منزلتهم ، ووصفهم الله تعالى بأنهم مقربون مكرمون .

قال تعالى : ﴿ لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [النساء: ١٧٢] .

وقال : ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦] .

ومن الفوائد أيضًا :

أن الأعمال بالخواتيم ، فإن إبليس كان عابدًا ، لكن ختم له بالسوء ، وفي ذلك يقول النبي ﷺ : « **إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخلها وإن أحدكم**

ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » (١).

وفي حديث معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : **«إنَّما الأعمال بالخواتيم كالوعاء إذا طاب أعلاه طاب أسفله ، وإذا خبث أعلاه خبث أسفله »** (٢) .

ومعرفة الإنسان بذلك لا تحمله على الكسل ، والتواكل على القَدر ، بل يعمل ، ويعلم أن كل إنسان ميسر لما خلق له كما قال ﷺ (٣) .

فقد قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ

---

(١) متفق عليه : أخرجه البخاري (٣٢٠٨) ، ومسلم (٢٦٤٣) من حديث ابن مسعود .

(٢) حديثٌ لا بأس به ، أخرجه ابن ماجة (٤١٩٩) وابن حبان (٣٣٩ ، ٣٩٢) وغيرهما ، وله شواهد .

(٣) فيما أخرجه البخاري (١٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٧) ، ولفظه ، قال ﷺ : « ما منكم من نفس إلاَّ وقد علم منزلها من الجنة والنار » قالوا : يا رسول الله! فلم نعمل ؟ أفلا نتكل ؟ ، قال :« لا » : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له» ثم قرأ : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ إلى قوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ » .

﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ : ٩] .

ومن الفوائد :

أن يعلم العبد أن المقدَّر سيقع حتمًا ولابد ، فقد سبق في علم الله أن إبليس سيؤول أمره إلى الكفر ، ويكون من أهل النار ، كما قال تعالى عنه : ﴿ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٣٤] .

فيستريح العبد مما أصابه ؛ لأنَّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

ولا يغني حذر من قدر ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] .

فيقول عند حدوث ما لا يرضى « قدَّرَ الله وما شاء فعل » ، « إنَّ لله ما أعطى ، وإن لله ما أخذ فيتصبر ويحتسب» ، «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجدّ » .

فإنَّ رضاه يخفف عليه ويكسبه الأجر .

ولذلك حجَّ آدمُ موسى

أخرج البخاري ومسلم (١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: « احتج آدم وموسى عليهما السلام عند ربهما، فحجَّ آدمُ موسَى، قال موسى: أنت آدم الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وأسكنك في جنته، ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض؟ فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالاته وبكلامه، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقرَّبك نجيًا، فبكم وجدت الله كتب التوارة قبل أن أُخلق؟، قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١]، قال: نعم، قال: أفتلومُني على أن عملتُ عملاً كتبه الله عليَّ أن أعمله قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ » قال رسول الله ﷺ: « فحجَّ آدمُ موسَى ».

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) واللفظ له.

فيأخذ العبد بأسباب السعادة ، وإن وقع الخطأ ولا يحتج بالقدر .

تنبيه : موسى ﷺ أعلم من أن يلومه لحق الله على ذنب قد علم أنه تاب منه فموسى أيضًا قد تاب من ذنب عمله وآدم ﷺ أعلم من أن يحتج بالقدر على أن المذنب لا ملام عليه . . فلو كان الإحتجاج بالقدر نافعًا له عند ربه لاحتج ولم يتب ويستغفر .

وأيضًا آدم ﷺ لم يلم أولاده ، بل إنما ولدوا بعد هبوطه من الجنة ، وإنما هبط آدم وحواء ولم يكن معهما ولد حتى يقال : إن ذنبهما تعدى إلى ولدهما ، والحاصل أن موسى عليه السلام إنما لام آدم من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بما فعل وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية في « مجموع الفتاوى » (٨/ ٣١٩) في بحث ماتع له حري بأن يراجع بتمامه .

ومن الفوائد في القصة:

عقوبة الحسد الذي أودى بكثير إلى المهالك ،فنستعيذ بالله منه ، فإنَّ إبليس حسد آدم ﷺ.

فكان ماذا؟ أخرج من الجنة مذمومًا صاغرًا مهينًا والعياذ بالله .

هذا الداء العضال هو الذي جعل أخوة يوسف يلقوه في غيابة الجب ، وهو صغير لم يذنب ذنبًا ، ولم يؤذ أحد منهم بأي نوع من أنواع الأذى فقطعوا الأرحام وعقّوا الوالد وآذوه حتى ابيضت عيناه من الحزن وعصوا ربهم.

قسوة قلوب !!

قال تعالى عنهم : ﴿ **إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ** ﴾ [يوسف : ٨].

الحسد الذي حمل ابن آدم الباغي على قتل أخيه: ﴿ **إِذْ قَرَّبَا**

قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ ﴾ [المائدة: ٢٧] .

حسدًا وبغيًا !!

ومن الفوائد أيضًا :

العلم بأنَّ المعصية تجرُّ إلى معصية كما أن الطاعة تَجرُّ إلى طاعة ، إلاَّ إذا سارع العاصي وبادر إلى التوبة النصوح.

فإن إبليس لما عصى وتكبَّر وامتنع طُرد من رحمة الله ، فأعلن وأصرَّ على ذنب آخر أكبر من السالف فاتهم ربه سبحانه وعادى ذرية آدم. . . وتوالى في المعاصي والعناد.

ألم تر إلى آدم لما أحدث التوبة بعد الذنب ، تاب الله عليه وهدى ، ثم أدخله الجنة . . . ؟!!

ومن الفوائد :

علم المرأة أن الذي يدعوها إلى نزع ثيابها عنها ويجعلها

تتبرج هو الشيطان بدعوته ، وهي مستجيبة لدعوته في هذا ، قال تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا ﴾ [الأعراف : ٢٦].

ندم إبليس على ما حدث منه

أخرج مسلم [١] من حديث أبي هريرة ﷺ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **إذا قرأ ابن آدم السجدة ، فسجد اعتزل الشيطان يبكي يقول : يا ويله « وفي رواية « يا ويلي » ، أُمر ابن آدم بالسجود ، فسجد فله الجنة ، وأمرت بالسجود ، فعصيت فلي النار** » .

لكن مع هذا فما زال مرض الكبر موجودًا ، فهو يبكي مع إصراره على ما أراده، ولم يندم ندم توبة وإنابة.

فإن سأل سائل ، وما الحكمة من الأمر بالسجود لآدم ؟

فالجواب : أنَّه تكريم لآدم لإظهار كبر ، وعناد ، وكفر إبليس ، كما سلف .

وقد ذكر بعض أهل العلم أنَّ الملائكة لما استعظموا بتسبيحهم وتقديسهم لله أمرهم بالسجود لغيره لِيُريهم استغناءه عنهم ، وعن عبادتهم ، والله أعلم بحكمته سبحانه [٢] .

---

(١) برقم (٨١) .

(٢) مستفاد من تفسير سورة البقرة لشيخنا . .

وهل يصح أن يسجد إنسان لأحد تكريمًا أو تشريفًا :

فالجواب : لا ؛ لأنَّ السجود لآدم كان بأمرٍ من الله تعالى، وفرضه له كما قد قال بذلك غير واحدٍ من أهل العلم .

نرجع إلى أصل القصة ، فنقول :

يا له من رب رحيم ، فمع عداوة إبليس الظاهرة لآدم وذريته، فهو يحذرنا من غوايته ، وإضلاله لتنقطع حجة العباد، على ربهم يوم القيامة ، لئلا يكون للناس على الله حجة ، فإن لله الحجة البالغة ، فقال الرحمن الرحيم لآدم أبي البشر : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٧- ١١٩] .

وقال سبحانه لذريته : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٧] .

وقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ

خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ [النور: ٢١].

وقال لآدم وذريته :﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف : ٢٤].

وقال : ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًا ﴾ .

وبين ادعاءة البراء يوم القيامة ممن أضلهم ، فإنه يقول لهم :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٢].

وقال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦].

وقال : ﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يس: ٦٠].

فأنَّى لهذا الجاهل الذي يقول : « إنَّ الله لم يرد هدايتي »، «لو شاء الله لهداني » ، « لم يأذن الله بعد بإقلاعي عن

المعـــاصي» « إذا أراد الله هدايتي اهـتـديت » .أن يـعلـم أن الله حذر كل هذا التحذير ؟

لماذا يا ترى .

ليريد هدايتك أم يريد إضلالك ؟!!.

مع أن قائل هذا لو كان يفهم لعلم أن الله أراد هدايته .

قال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النساء: ٢٦].

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٢٨].

ومن أجل هدايتـنا أرسل الرسل وأنزل الكتـب ، وبيَّن مـا نحتاج إليه من بيان .

وقال لنبيه ﷺ : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ﴾ .

سكن آدم ﷺ

أسكن الله تعالى آدم ﷺ وزوجته الجنة التي في السماء جنة المأوى [1] فقال : ﴿ وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] فاشترط عليه عدم الأكل من شجرة من شجرها .

وعلى هذا إذا أسكن رجلٌ رجلاً ، واشترط عليه شروط وجب إيفاءه بها ، ويصح هذا الشرط لهذه الآية ، ولقوله ﷺ: « المسلمون عند شروطهم » وهو حديث حسن كما قال الحافظ في « الفتح » .

وما هذه الشجرة التي نهى الله نبيه آدم ﷺ عن الأكل منها؟ .

أبهم الله ذكرها وتعيينها ،ولو كان في ذكرها مصلحة تعود

---

(١) وهذا قول جمهور المفسرين لظاهر الآيات ، والأحاديث ، لحديث احتجاج آدم وموسى ، فإنَّه قال له : « أخرجتنا ونفسك من الجنة » ولحديث الشفاعة الطويل : ففيه يقول آدم : « وهل أخرجكم من الجنة إلاَّ خطيئة أبيكم ؟» ومحصلة الخلاف في تحديد الجنة هل هي جنة الخلد أم غيرها لا فائدة منه والله أعلم .

إلينا لعيِّنها لـنا كما في غيرها من المحـالّ التي تُبهم في القرآن كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى.

كـذا أسكن الله تعـالـى آدم الجنة ، وهي ذات أشـجـار ، وثمـار ، وظلال ، ونعـيم ،ونضرة ، وسـرور ، كـما قـال تعالى:

﴿ إِنَّ لَكَ أَلاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَىٰ ﴾ [طه : ١١٨].

أي : لا يذل باطنك بالجوع ، ولا ظاهرك بالعري .

﴿ وَأَنَّكَ لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلا تَضْحَىٰ ﴾ [طه : ١١٩] .

أي : لا يمس باطنك حر الظمأ، ولا ظاهرك حرُّ الشمس.

ولهـذا قرن بين هذا وهذا ، وبين هـذا وذاك لما بينهمـا من الملائمة .

فـأزلهـما الشـيطان عن الجنة بمـا وسوس لهـمـا وزينه في صدورهما.

﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة : ٣٦]، من النعيم والنضرة والسرور إلى دار التعب ، والكد ، والنكد ، والابتلاء .

قال تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ

عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠].

أي : ما نهاكما ربكما عن الأكل مِنْ هذه الشجرة إلاَّ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، أي : ولو أكلتما منها لصرتما على ذلك .

﴿ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف : ٢١] ، وفي الآية الأخرى : ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَّ يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

أي :هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم ، واستمررت في ملك لا يبيد، ولا ينقضي ؟

هكذا غَرَّرَ بهما الشيطان وزوَّر لهما ، وأخبرهما بخلاف الواقع.

فيستفاد من قسم إبليس هذا أنه :

ليس كل من دعى إلى دعوة نستجيب له فما قول فرعون : ﴿ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾

[الزخرف: ٥١-٥٤]، ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلاَّ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] إلاَّ دعوة .

هكذا استخف قومه فأردى من أطاعوه وحاق بهم سوء العذاب في الحال والمآل فـ ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] ، فتنبه .

في القصة من الفوائد:

أن الإنسان لا ينخدع بالأيمان ، والقَسَم إذا كانت من عدو له ، أو ممن لُدِغَ منه قبل ذلك ، فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين .

فليس كل من أقسم لك تصدقه ، فهذا الملتعنان - الرجل وامرأته - أمام النبي ﷺ - يضع رسول الله ﷺ يده على الملاعن وهو يحلف، ويقول ﷺ : **« الله يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما من تائب »** [1] .

---

(١) صحيح : أخرجه مسلم (١٤٩٣) ، وأصل قصة المتلاعنين في الصحيحين البخاري (٥٣٥٠) ، ومسلم (١٤٩٣) ، وقد ذكرناها في «تبصير النساء» «قسم اللعان».

وفي رواية : « **حسابكما على الله ، أحدكما كاذب** » .

وأمَّا أثر أبي هريرة عن النبي ﷺ ، قال : « **رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق ، فقال له عيسى : سرقت ؟ قال : كلا ، والذي لا إله إلا هو ! فقال عيسى : آمنت بالله ، وكذبت نفسي** » (١) .

فليس بمخالف لما ذكرنا ، فإنَّه يحتمل أن عيسى عليه السلام رأى احتمالية أن يكون للرجل حق في المال الذي أخذه.

أو أن صاحبه أذن له في أخذه .

أو أنه أخذه لينظر منه ، ولم يقصد الغصب والإستيلاء .

أو يكون عيسى ﷺ غير جازم بسرقة الرجل ، فأراد استفهامه بقوله : « سرقت » ؟ .

ويحتمل أنّه رأى الرجل مدَّ يديه ، فظنَّ أنه تناوله ، فلما حلف له بالله رجع عن ظنه . . أو غير ذلك (٢).

فليس بصريح في أن من حُلف له بالله ، فليصدق اللهم إلاَّ إذا انضم إلى الحلف قرينة .

---

(١) صحيح : أخرجه البخاري (٣٤٤٤) ، ومسلم (٢٣٦٨) .

(٢) وراجع عدة تأويلات ، لذلك في « الفتح » (٦ / ٥٩٣) وغيره .

ومن خدعنا بالله فيما لا خلل منه ، وانخدعنا له ، فليس بضائر ، والله أعلم .

ومن قصة آدم نتعلم أن ترك الأمر عند الله أعظم من ارتكاب النهي لأن آدم نهى عن أكل الشجرة فأكل منها فتاب عليه وإبليس أُمر أن يسجد لآدم فلم يسجد فلم يتب عليه كما قال سهل بن عبد الله قال ابن القيم في «الفوائد» ص ١٤١ : هذه مسألة عظيمة لهما شأن، وهى أن ترك الأوامر أعظم عند الله من ارتكاب المناهي ثم ذكر ذلك من ثلاثة وعشرون وجه فتراجع لنفاستها .

نرجع إلى ما دار بين إبليس عليه لعنة الله ، وآدم عليه السلام:

قال تعالى: ﴿ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢].

وقال في الآية الأخرى : ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١].

وكانت حواء قد أكلت من الشجرة قبل آدم ، وهي التي

حتته على أكلها ، وعليه يحمل حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ ، لولا بنو إسرائيل لم يخنز [١] اللحم ، ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها » [٢].

ومعنى خيانتها أنها قبلت ما زيَّن لها إبليس حتى زيَّنته لآدم.

ولما كانت هي أم بنات آدم أشبهنها بالولادة ، ونزْع العرق، فلا تكاد امرأة تسلم من خيانة زوجها بالفعل أو بالقول.

وليس المراد بالخيانة هنا ارتكاب الفواحش حاشا وكلا ، ولكن لما مالت إلى شهوة النفس من أكل الشجرة ، وحسَّنت ذلك لآدم عُدَّ ذلك خيانة له كما قد ذكر ذلك بعض العلماء ، والله أعلم بما كان حيث أن الدليل أيضًا ليس بصريح.

وأمَّا مَنْ جاء بعدها من النساء ، فخيانة كل واحدة منهن بحسبها .

فمن فوائد الحديث إذًا :

(١) أي : ينتن اللحم .
(٢) صحيح : أخرجه البخاري (٣٣٣٠) .

أنها تسلية للرجال فيما يقع لهم من نسائهم بما وقع من أُمِهِنَّ الكبرى ، وأن ذلك من طبعهن، فلا يُفْرَطُ في لوم مَن وقع منها شيء من غير قصد إليه أو على سبيل الندور ، ويؤيده فعله ﷺ حين أخرجت إحدى زوجاته ﷺ سر حديثه ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ [التحريم: ٣] .

فلا يفرك [١] مؤمن مؤمنة بشرٍ منها إن كره منها خُلقًا رضي آخر .

وقد قال ﷺ : « إن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء خيراً » [٢].

والإشارة بأعلى الضلع إلى لسانها فإنه هو الذي يحصل منه الأذى غالبًا .

---

(١) أي : يبغض .

(٢) صحيح أخرجه البخاري (٥١٨٥) ومسلم (١٤٦٩).

والحاصل : أن آدم وحواء أكلا من الشجرة ، ونسيا عهد الله لهما أنَّ الشيطان لهما عدو ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه:١١٥].

وقد تقدم أن الله تعالى عهد إلى آدم ، وزوجه أن يأكلا من كل الثمار ، ولايقربا هذه الشجرة المعيَّنة في الجنة ،فلما أكلا منها بدت عوراتهما ، فأخذا ينزعان الورق ، ويضعانه على سوآتهما (١).

هكذا أزلهما الشيطان عن الجنة بسبب استجابتهما له .

فها هي نتيجة الإستجابة للشيطان وخطواته ، وعدم سدّ ذرائعه ووسوسته ، هو وأبناءه وجنوده .

﴿ فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾ [البقرة:٣٦] .

أخرج آدم وزوجته من النعيم والنضرة والسرور ، إلى دار التعب والكد والنكد ، ذلك بما وسوس لهما وزينة في

(١) وسواء كان هذا الورق ورق التين على ما صح عن ابن عباس أو من أي ورق التين أو غيره على ما تقتضيه عموم الآية ، فلا يضرّ الخلاف في هذا، ويبدو أن قول ابن عباس مأخوذ من أهل الكتاب ، كما أشار إلى ذلك ابن كثير .

صدورهما بقوله : ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

أي : قال لهما : إنَّكُمَا إذا أكلتما من هذه الشجرة حصل لكما الخلدَ فيما أنتما فيه من النعيم واستمررتما في ملك لا يبيد ولا ينقضي .

فلما كان من آدم ﷺ ما كان من أكله من الشجرة التي نُهِيَ عنها هو وزوجته أُهبط إلى أرض الشقاء ، والتعب ، والنصب، والكدَر ، والسعي ، والنكد ، والإبتلاء ، والإختبار ، والإمتحان ، واختلاف السكّان الذَين كانا بينهم إلى الذين سيصيران فيهم دينًا، وأخلاقًا ، وأعمالاً، وأفعالاً، حيث قال الله لهم بعد : ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة : ٣٦] .

﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [الأعراف : ٢٢].

لكن كيف الخلاص وقد وقع المحظور ؟!

كيف يفعل من فرَّط في جنب الله ؟!

كيف يفعل من وقع في المعصية ، ونسي عهده مع ربه ؟!

ما العمل إذا غرَّ الشخص شيطـانه ،وغلبته شهوته ، وفَعَل ما نهى الله عنه ؟!

إن تكبَّر واستمـر في غيِّه ، فهو معاند مسـتكبر مُصرٌّ على معصية الله ، وسلفه في هذا إبليس .

إن عليه أن يعترف بذنبه ، ويرجع إلى الله وينيب في تذلل وخضوع وإستكانة وافتقار إليـه تعالى في الساعة الراهنة ،كما فعل آدم النبي ﷺ وزوجته نتعلم من قولهما:

﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الاعراف : ٢٣] .

فهذه مقولة من اتبع الهدى ، وما غوى .

فكم تحمِل هذه العبارة من معانٍ رفيعة .

فالقلب منيب .

والاعتراف بالظلم كائن .

والتبرء من الحول والقوة حاصل .

والإعتراف برحمة الله ، وعقابه موجود .

فكم حملت تلك العبارة من رغبة ، ورهبة ، واستكانة ، وتضرع ، وخضوع ، وخشوع .

﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

فيا لها من كلمات عظيمة جليلة، إنها الكلمات التي تلقاها آدم من التواب الرحيم ، ليتوب عليه .

﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة : ٣٧].

وقد دخلت حواء في خطاب « فتاب عليه » ؛ لأنَّها من آدم ولم تذكر في الآية من باب الحذف والإختصار .

هكذا تاب الله على آدم ﷺ وزوجته .

فما أحلم ربنا ، وما أرحمه، فالفضل منه ، وإليه.

يُعصى ، فيغفر .

لا يهتك الستر ويجيب المضطر ويكشف الضر ويبرئ السقيم ويغفر الذنب العظيم ويظهر الجميل ويستر القبيح ولا يبلغ ذكر نعمه قول قائل: ﴿ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ

فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢].

يتولى الإنسان ويخلي بينه وبين نفسه ، فيضل .

ثم يفتح له باب التوبة ، بل يفتح عليه بالدعاء الذي يحتاج إليه .

أو يفتح على غيره في الدعاء بما ينتفع به ذاك المسكين ، ولا عجب ، فـ ﴿ الله ذو الفضل العظيم ﴾ .

فهذا الدعاء المبارك الطيب ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] لكل من صدر منه ذنب ، فكم كان ذا الدعاء سببًا ، لتفريج الكروب ، والهموم ، والغموم .

وهكذا اعترف يونس بن متى ﷺ بالذنب ، حيث قال ، وهو في الظلمات الثلاث ظلمة الليل ، وظلمة الماء ، وظلمة بطن الحوت ، حيث لا أنيس ، ولا مُدافع، ولا منجا من الله إلا إليه : ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فنجَّاه الله من الهم والغم كما ينجي المؤمنين.

ومثلها قولة إبراهيم خليل الرحمن حينما أُلقي في النار ،

فـإنَّه قال : ﴿ حـسبنا الله ونعم الوكـيل ﴾ ، فأنجـاه الله من النار، وقال للـنار : ﴿ كوني بردًا وسلامًـا على إبراهيم ﴾ ، وهي مقـولة النبي وأصـحابه حـينما جُـمعت لهم الجـموع ، وجُيشت لهم الجيوش لاستئصال شأفـتهم وإستباحة بيضتهم ، والقضاء عليهم ،وعلى دعوتهم ، قالوا : ﴿ حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، ﴿ فانقلبـوا بنعمة من الله وفضل لم يمسـسهم سوء واتبعوا رضوان الله ، والله عنده أجر عظيم ﴾ .

فينبغي لمن صدر منه ذنب أن يفرّ من الله إليـه معترفًا بذنبه متبـرئًا من الحـول والقوة إلاّ به سـائلاً إيَّاه الإعـانة والعفـو والغفران والموفق من وفقه الله.

وعودة إلى قصة آدم :

أخطأ إبليس ، وأخـطأ آدم ، فيـا هـل ترى لم تاب الله على آدم ـ بل لقنه الكلمة التي يغفر له بها وألقاها إليه سبحانه ـ ولم يتب على إبليس مع أن كلّ منهما عصى ربه ؟

الجواب:

ذلك أن إبليس لم يَعُـد إلى ربه ، بخلاف آدم ، فـإنه عاد

ودعا، واجتهد غاية الاجتهاد بالدعاء في الساعة الراهنة ، وهذا السرّ ما سرى في أحدٍ من ذريته إلاّ كانت عاقبته إلى خير في دنياه وأخراه كما قال ابن كثير رحمه الله : لم يرض إبليس بما قدره الله عليه ، بل عاند ، وزاد في طغيانه بخلاف آدم ، فإنَّه استكان واعترف بذنبه ، وعلم أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه، فأناب .

أمَّا إبليس ، فلم يتب إلى ربه أصلاً ، ولم يسأله التوبة ، بل سأله النظرة ، فأعطى كل واحدٍ منهما ما سأله .

بخلاف إبليس، فإنَّ ذنبه مرض خطير قاتل ، فتاك يفتك بصاحبه ألآ، وهو الكبر الذي هو بطر الحق ، فإنَّه ينازع الرب جل وعلا في ردائه، ولذا قضى الله على صاحبه بالنار وحرمَه الجنة إن مات، ولم يغفر الله له ، والنبي ﷺ يقول : عن رب العزة « **العز إزاره والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبته** »[1] .

(١) صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٠) من حديث أبي سعيد وأبي هريرة .

فالمتكبر كلابس ثوبي زور .

فحقًا وصدقًا :

﴿ وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف:٤٩] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠] .

لقد جمع إبليس ـ عليه لعنة الله ـ بين سوء الأدب مع الله ، وسوء ظنه به ، وإصراره على الكفر بل الزيادة في الإباء ، والاستكبار ، والغلو فيه في المستقبل ، فقال :﴿ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧] ، وقال ﷺ : « **إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه كلها ، وذكر أنه قعد بطريق الإسلام والهجرة والجهاد**» ، وقد سلف الحديث بتمامه .

أمَّا آدم ﷺ وزوجه ، فقد حَسُن ظنهما بربهما ، وساء

ظنهما بأنفسهما ، وأنصفا من نفسهما حينما قالا : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

وهذا ضمن ما يطلعك على حكمة الله البالغة ، وأنَّه يضع الشئ في موضعه ، حيث وضع الإيمان ، والهدى ، والتوبة، والإنابة ، في آدم ووضع الكفر ، والظلم ، والكبر . . في إبليس .

إنَّ ربي حكيم خبير .

فأين هذا ممن يقولون : «ويعطي القرط لمن ليس له أذن »؟! .

فإنَّهَا مقولة جاهلية تنم عن غباء وجهل صاحبها ، فإن فيها إتهام لله وسوء أدب معه ، فلا يظلم ربك أحدًا .

إنَّ إبليس لم يتدارك نفسه ويفر إلى مولاه مستعيذًا من شر نفسه حتى يغيثه ، ويدركه كما فعل آدم .

بل تجاوز الحد في الفجور والطغيان وأكثر من إظهار المعاندة لربه وخالقه ، فطلب منه النظرة إلى يوم القيامة ليفسد أكثر

ويغضب ربه أكثر فمدَّ الله له في عمره وأجاب طلبه، واستجاب دعاؤه.

فأقسم ليُغوِيَّنَ بني آدم !

إنَّه بارز بالمحاربة !!

فيا له من سوء أدب وكفر ، وإباء ، واستكبار ، وعناد ، وتحد سافر ظاهر على السيد سبحانه وتعالى ، فبدلاً من أن ينسب الظلم والغواية إلى نفسه نسبه إلى ربه ، وقال: « فما أغويتني ..» ، ولا يظلم ربك أحداً .. فسبحان ربي .

وجاء القدر المحتوم على آدم وحواء وإبليس بالهبوط إلى الأرض .

﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [الأعراف : ٢٤] .

أي : أنتم أعداء لإبليس وجنوده وهم أعدائكم .

وفي الآية الأخرى : ﴿ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ [طه : ١٢٣].

وهذا خطاب لآدم وإبليس «اهبطا» وحواء تبع لآدم .

وفي الآية الأخرى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٣٨].

الله لطيف بعباده

لمَّا أُهبط آدم إلى الأرض لم يكن الله ليضيعه ، بل يرعاه ، فالله لن يخلق خلقًا وينساه ، بل يتعهدْه بالرزق إذا قام بأسبابه، ولذا قال : ﴿ مَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود:٦]، فهيأ لآدم أسباب الرزق .

أخرج عبد الرزاق [١] وغيره بإسنادٍ قوي عن أبي موسى الأشعري ﷺ ، قال : إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علَّمه صنعة كل شئ ، وذوده من ثمار الجنة ، فثماركم هذه من ثمار الجنة غير أن هذه تتغيَّر ، وتلك لا تتغير » .

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ [يوسف:١٠٠].

ويستفاد من طلب إبليس النُظرة إلى يوم البعث ، وإستجابة الله له:

---

(١) في تفسيره (٤٢) ، والحاكم (٢ / ٥٤٣) .

أنَّه ليس كل من دعى واستجيب له كان مؤمنًا ، وإنَّمَا يكون الإيمان إذا دعا الإنسان على سبيل الذل والخضوع لله تعالى مع استيفاء الشروط الأخرى للإيمان.

فلا يغتر إنسان بعطاء الله له ، ولا باستجابته له دعاء ولا بنجاته ، فيدعي بناءًا على ذلك الإيمان .

فقد استجاب الله لإبليس مع كفره ، وعناده ، وغيّه ، وإستكباره . .

وقد علم إبليس - عليه لعنة الله - أنه عاجز من كل وجه إلا بالله فاستعان بعزة الله وقدرته على إغواء آدم .

فلا تتقاعس أنت أيضًا عن الإستعانة بالله أن يخلصك من كيده ، وغيِّه ، وأن يجعلك من عباده الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، المخلَصين .

يأتي سؤال في آخر القصة حول خطيئة آدم عليه السلام ، هل الأنبياء عليهم السلام معصومون ؟

فالجواب : أمَّا بالنسبة لتبليغ الرسالة ، فإنَّهم معصومون لا يخطئون ، ولاسيما والوحي يصحح ما قد يكون صدر فيه الخطأ هذا إن سلمنا أنهم يخطئون أصلاً ، وقد قال تعالى عن نبيه ﷺ : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴾ [النجم : ٣ : ٥].

واتفق العلماء على أنَّه لم يصدر من الأنبياء كبائر ، أمَّا الصغائر ، فقد يصدر من أحدهم صغيره كما وقع من آدم ﷺ من أكله من الشجرة ، وإدعاء موسى عليه السلام أنَّه أعلم الناس ، وما حدث من يونس بن متى ﷺ ، وحب سليمان الخير عن ذكر ربه، وغير هؤلاء ، إلاَّ أن ذلك لم يخل بمناصبهم ، ولا يقدح ذلك في رتبهم ، بل قد تلافاهم الله واجتباهم وهداهم ومدحهم وزكاهم واختارهم واصطفاهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، كما قد أشار القرطبي رحمه الله إلى ذلك ، وإلاَّ فإن تسمية ما وقع منهم مما سبق ذنوب فيه نظر .فقد يقال : لهم أعزازاً وليست بذنوب وإنما

نشأ عن تأويل .

ونقل النووي في « شرح مسلم » الإتفاق على أنهم معصومون من الصغائر التي تزري بفاعلها ، وتحط منزلته وتسقط مروءته ، قال :

واختلفوا في وقوع غيرها من الصغائر منهم ، فذهب معظم الفقهاء والمحدثين والمتكلمين من السلف والخلف إلى جواز وقوعها منهم ، وحجتهم ظواهر القرآن والأخبار ، وذهب جماعة من أهل التحقيق والنظر من الفقهاء والمتكلمين إلى عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر ، وأن منصب النبوة يُجلُّ عن مواقعتها ، وعن مخالفة الله تعالى عمدًا ، وتكلموا على الآيات والأحاديث الواردة في ذلك فتأولوها ، **وأن ما ذكر عنهم من ذلك إنَّمَا هو فيما كان منهم على تأويل أو سهو أو من إذن من الله تعالى في أشياء أشفقوا** من المؤاخذة بها ، وأشياء منهم قبل النبوة .

وهذا المذهب هو الحق لما قدَّمناه .

ولأنَّه لو صح ذلك منهم ، لم يلزمنا الإقتداء بأفعالهم وإقرارهم ، وكثير من أقوالهم ،ولا خلاف في الإقتداء بذلك.

وإنَّما اختلاف العلماء : هل ذلك الاقتضاء على الوجوب أو على الندب ، أو الإباحة ، أو التعريف فيما كان من باب القرب أو غيرها ؟

ونقل عن القاضي في « الشفا » في معرض الكلام على هذا أنه قال :

« ولا يهولك أن نسب قوم هذا المذهب إلى الخوارج ، والمعتزلة ، وطوائف من المبتدعة إذ منزعهم فيهم منزع آخر من التكفير بالصغائر ، ونحن نتبّرأ إلى الله تعالى من هذا المذهب.

وانظر إلى هذه الخطايا التي ذكرت للأنبياء من أكل آدم عليه السلام من الشجرة ناسيًا ومن دعوة نوح عليه السلام على

قوم كفار ، وقتل موسى ﷺ لكافـر لم يؤمر بقتله ، ومدافعة إبراهيم ﷺ الكفار بقولٍ عرَّض به هو فيه من وجه صادق .

وهذه كلها في حق غيرهم ليـست بذنوب ، لكنهم أشفقوا منهـا إذ لم تكن عن أمر الله تعـالى ، وعـتب على بعضـهم فيها،لقدر منزلتهم من معرفة الله تعالى .

والحمد لله رب العالمين .

وصلى اللهم وسلم وبارك على محـمد وسلم ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

كتبه

أبو يحيى

محمد بن أحمد بن عبده

بلطيم ـ كفر الشيخ ـ مصر

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات